# عرض لسوسيولوجيابيار بورديو Pierre Bourdieu

## كتاب التلفزيون – نموذجا –

**د.عبد اللاوي ليندة**

**أ.بشير هناء**

**جامعة تلمسان**

***مقدمة:***

عرف بيير بورديو بفكره السوسيولوجي و انجازاته في مجال البحثلإنتاج مقاربات عميقة المبنى والمعنى، فهو من أهم المفكرين الفرنسيين الذين وضعوا بصمتهم الفكرية و أثّروا بشكل كبير على الحركات الاجتماعية و السياسية التي شهدها القرن العشرين، كان من أكبر معارضي العولمة و انتقد بكل جرأه كل من عارض فكره في فرنسا .

لقد درس بورديو الكثير من الظواهر الاجتماعية والتي مست أدق تفاصيل الحياة اليومية مبينا فيها كيفية وقوع التمايز الاجتماعي وعنف الرأسمال الرمزي و قد ساهم بأعماله السوسيولوجية الميدانية في تأسيس كمّ من النظريات والتوجهات التي تدرس جغرافيا المشهد المجتمعي بكل حيثياته وآلياته الاجتماعية والسياسية والثقافية .كما يعد من أهم المنظّرين الذين تُعد مؤلفاتهم أدوات للنضال الفكري والاجتماعي ضد العولمة ومراكزها في أمريكا وأوروبا وآسيا؛ ولاسيما ما وجهه هذا المفكر الريادي من نقد حاد لوسائل الإعلام الفرنسية من خلال كتابه نجد "التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول"1الذي صدر في عام 1999

يعد هذا الكتيب من أشهر الأعمال التي ألفها بيير بورديو و الذي يحمل بين طياته صرخة قوية من أجل التنديد بالدور السلبي الذي أصبح يؤديه التلفزيون في عصر أضحى هذا الاخير هو من يغذي فكر و عقول أفراد المجتمع. ان التلفزيون حسب رأيه هو الأداة الاعلامية الأكثر اقبالا كونها تنقل الرسالة في شكل صور ترسخ في أذهان الأفراد.

يفضح هذا الكتاب أيضا ما تقوم به وسائل الإعلام الحديثة وفي مقدمتها الفضائيات التلفزيونية من تلاعب وتأثير في عقول الناس بتطبيق ما يسمى بـ«الأيديولوجيا الناعمة» والتي تتمثل بتلك الجرعات اليومية واللحظية التي تبثها محطات تلفزيونية في سبيل تشكيل الأفكار الخاطئة والرأي العام المزيف، فهذه القنوات لم تعد مجرد فضائيات تقدم برامج للتثقيف و التسلية والترفيه، بل هي –كما يؤكد بورديو– أصبحت أدوات للعنف الرمزي والضبط والتحكم السياسي والاجتماعي في المجتمعات ككل .

صدر كتاب بييربورديو «عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول»عام 1996 ككتاب جيبف يفرنسا؛و لقي نجاحاً كبيراً في أوروبا آنذاك كونه يحوي تحليلا سوسيولوجيا لمكانة التلفزيون لدى الجماهير العريضة.فبعدما كان التلفزيون واحدا من الوسائل الصحافية في سنوات الخمسينات ، وكان العاملون في المحطات التلفزيونية يشكّلون وجاهة اجتماعية بحيث أنهم تابعين لهيمنة مزدوجة، و خاضعين للسلطات السياسية من وجهة نظر

ثقافية رمزية، أصبح التلفزيون اليوم أداة للسيطرة داخل المجال الصحفي والرمزي، بتحوّل مذيعو ومقدمو البرامج إلى قادة رأي و ذوي تأثير بالغ في مواقف الأفراد و آرائهم، وهذا ما أثّر سلباً على شعبية الصحيفة الورقيةو أدى إلى اختفاء عدد كبير من الصحف العالمية الكبرى، أو تراجع توزيعها وانتشارها وإقبال القراء عليها.

يؤكد بورديو في كتابه هذا على ضرورة إعادة النظر والتأمل في الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام الدولية ولا سيماالتلفزيون اذي يعرفه كأداة إعلامية ذات استقلالية ضعيفة جداً تقع على كاهلها سلسلة كاملة من المحددات والقيود، والتي تعود بدورها و في مجملها إلى العلاقات الاجتماعية بين الصحفيين التي تسودها المنافسة الضارية النزيهة منها و غير النزيهة ، بل هي كما يصفها عالم الاجتماع الفرنسي «علاقات تواطؤ». يستعرض بيار بورديو في هذا الكتاب محطات تاريخية لبزوغ التلفزيون في سنوات الستينيات كظاهرة جديدة، كما يوضح كيف استعجل بعض علماء الاجتماع في حكمهم عليه و نعته "كجهاز و وسيلة للإعلام الجماهيري"، بما أنه اعتبر أنداككجهاز محايد يؤدي إلى تجانس تدريجي بين جميع المشاهدين لكنلا يشاطر بيار بورديو هذا الرأي بل و يعتبرهكنوع من إساءة تقدير قوة التلفزيون وفاعليته و العنف الرمزي الذي تمارسه على المشاهد.

فيلفت بورديو في مقدمة كتابه إلى خطورة العمل الرمزي للتلفزيون، والذي يتمثل حسبه في جذب الانتباه نحو ما يسميه بـ«صحافة الإثارة» و«إعلام الدم والجنس والجريمة». اذ أصبحت هذه المواد البصرية تعمل على جذب انتباه المشاهدين من كل الأعمارو حتى ممن لا يقرؤون أي صحيفة أو كتاباً و هنا تكمن الخطورة ، بحيث يؤسس التلفزيون المصدر الوحيد للمعلومات تاركا المجال أمام القائمين على النشرات الإخبارية لممارسة فن حجبو انتقاء المعلومات الواجب عرضها على الشاشات التلفزيونية. ان هذا النوع من الممارسات لا يخلو من المخاطر السياسية ، فامتداد تأثير الشاشة الصغيرة جعلها تهيمن على كل أنواع الانتاج الثقافي و المعرفي و انطلاقا من مبدأ أن للصورة التلفزيونية خاصية تمكّنها من انتاجما يسميه نقاد الأدب ب«تأثير الواقع» لأنها تؤدي إلى رؤية أشياء والاعتقاد فيها بقوة بحيث تخلق أفكاراً وتعبيرات تتم تعبئتها بمضامين سياسية وأخلاقية وثقافية واجتماعية قادرة على إثارة مشاعر سلبية تأتي على رأسها العنصرية والعرقية والعداء للآخر.

***التلفزيون و العنف الرمزي :***

اذا انطلقنا من المبدأالذي يقول أنه لا يوجد واقع الّا ذاك الذي يتم بناؤه اجتماعيا، فهذا لا يدل على عدم وجود واقع ، لأنه لا يتأسس الا من خلال جمع من الوساطات الرمزية، التقنية و العلمية...2و في هذا الشأن ، تناول بيار بورديو موضوع العنف الرمزي الذي يمارسه التلفزيون على المشاهدمن حيث عدم نقله للواقع الاجتماعي الذي تعيشه الشعوب من أجل التأثير على الرأي العام ، فنعتالتلفازبأنه "الإيديولوجيالمدافععنالنظامبكلابحراسة"،وهو يعتبره كأداة و آلية للتحكم في العقل البشري ، أما عن الرمزية في العنف ، فانطلاقا من فكرة أن " السلوك نفسه رمز ما دام ينطوي على حد أدنى من التمثل الصامت "3

فان السلوك الذي أصبح يتبناه الصحفيون و الاعلاميون بشكل عام لا يتوافق و أدبيات المهنة ، منهناتأتي ضرورة استعراض موقف عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو حول التلفزيون.

فحسب تصور بورديو، تحولت مهمة وسائل الاعلام و خاصة القنوات التلفزيونية بما فيها الفضائية من أدوات للضبط الاجتماعي من خلال تقديم برامج تثقيفية و ترفيهية واخبارية الى أدوات "للعنف الرمزي" الذي تستغله الطبقات الاجتماعية السائدة والمهيمنة في خدمة مصالحها ومكتسباتها. يعتبربورديو أيضا أن التلفزيون بآلياته المعقدة لا يشكل خطراً على مستوى الإنتاج الثقافي، من فن وأدب و علوم و قانون فقط ، بل أصبح يهدد مصير الحياة السياسية والاجتماعية و الديمقراطية.

و من هذا المنطلق، يسعى مالكي و مسيّري القنوات التلفزيونية اليوم بكل الوسائل الى الحصول على أكبر قدر من الاقبال الجماهيري و قد تورط في تلك المهمة جزءا كبيرا من الصحفيين الذين تحولوا الى تابعين و مساهمين فاعلين في ممارسة العنف الرمزي على عقول المشاهدين مما يدل على تعرض المجال الصحفي إلى الكثيرمن الضغوطات والتدخلات المتعددة،وعلى مستويات مختلفة.فتحدث بورديو عن الصراع داخل المجال الصحفي وبأن هنالك المهيمنون وهنالك الخاضعون للهيمنة في هذاالمجال تبعاً لتفاوت حصصهم في السوق وأن هذا التفاوت جاء نتيجة للمنافسة الاقتصادية بين التلفزيونات والصحف من أجل كسب المشاهدين والقرّاء.

ففي فترة أضحى فيها من الصعب التمييز بين مفاهيم التحديث، العقلنة و التنمية، و لذلك بقيت هذه الأخيرة مجرد شعارات و في أفضل الحالات فإنها اقترنت بجملة من الاحصائيات تقدمها الحكومات عند نهاية كل سنة أو مخطط 4و على هذا، فاذا اخذنا بعين الاعتبار أن فئة كبيرة من الأفراد ممّن لا يقرؤون الصحافة المكتوبة من صحف و جرائد و مجلات ، و لا يطلعون على مستجدات الأحداث المحلية و العالمية الّا عن طريق التلفزيون، فهذه الفئة هي الأكثر عرضة الى ما يسمى بالعنف الرمزي عبر ما يسمى بالأيديولوجيا الناعمة ، و التي على أساسها يتلقى الأفراد كلّ ما يعرض من أخبار و معلومات زائفة بطريقة سلسة و ناعمة كوجبة ثقافية جاهزة فيكوّنون على أساسها آرائهم و أفكارهم و مواقفهم السياسية و الاجتماعيةو غيرها. هذا ما سماه بيير بورديو بالعنف الرمزي ، و هو حسبه ناتج عن وسائل مدفوعة بمنطق اللهاث وراء مزيد من الإقبال الجماهيري بإتاحتها الفرصة أمام المحرضين على الأفكار والممارسات العنصرية المعادية للآخر.

***نقد بورديو للإعلام و التلفزيون:***

ان السياسة التنموية المنتهجة منذ الثمانينات و في مختلف أقطار العالم الثالث تعتمد على مراجعة السياسات الاقتصادية و تشجيع الليبرالية و دعم الخوصصة ضمن ما يسمى بسياسة الاصلاح الهيكلي 5، و يعد بيير بورديو من أكبر المناضلين ضد الأشكال الجديدة من السلطة السياسية والاقتصادية المتمثلة في ظاهرة العولمة والخوصصة الاقتصادية، فينادي بضرورة حماية الأشكال التقليدية من

العلاقات الاجتماعية ضد وحش الليبرالية الجديدة التي باتت تهدد بتفكيك المجتمعات، ومحو أشكال التضامن الاجتماعي، على صعيد التجمعات الإنسانية الصغيرة، وعلى صعيد المجتمعات والدول.

و قد قضى هذا السوسيولوجي الفذ السنوات الأخيرة من حياته المعرفية والعلمية في تفانيه في الفكر النضالي والمشاركة السياسية الفاعلة بمشاركته في مجمل التظاهرات لإبداء كل أشكال التضامن العملي والمشاركة في الإعتصامات، كما قام بنقد الممارسات السياسية فيأكبر الدول الأوروبية، بما فيها الإعلام والتلفزيون.

حينكانينتقدالتلفزيون،كانيتحدثضمنسلسلةمحاضراتتنظمهاآنذاك "كوليجدوفرانس" أيأنهاستعملالأداة نفسها و هي "الشاشةالصغيرة" للتعبير عن انتقاداته الحادة للأساليب الاعلامية المزيفة و على رأسها التلفزيون.

تمت المقابلات التلفزيونية التي قام بها بيير بورديو ضمنشروطتناسبهمنخلالاختيارهللموضوع،وأخذالوقتالكافيلمناقشةوإيصالأفكاره و مواقفه.

و في هذا المجال يقر بورديونفسهأنهإذاكانتهناكوسيلةتصلحلأنتعطينافكرةعلىثقافةاليومي،فإنهاستكونبدونمنازعالتلفاز ، فهووسيلةمافوقواقعية،أيأنهاواقعيةأكثرمنالواقع،لأننانستمدوعيناباالواقعانطلاقامنالتلفزيونو لهذا فأيشيءلايبثداخلهيبدوأقلواقعية.

و تبقىأكبر انتقاداته تكمن في ما سماه ب"فن حجب المعلومات" و الذي يتمثل حسبه في تلاعب الصحفيين بالأحداث المقدمة عبر الشاشة من خلال تلاعبهم بالمصطلحات ، فالغرض من استخدامهم لمصطلح ثورة أو مجزرة و المبالغة فيهما هو لجذب انتباه واهتمام المشاهد بهدف السيطرة على حواسه. و بذلك يصنعون من الأحداث الغير مهمة أحداثا مهمة جداً لتحقق من هذا التلاعب أهدافاً خفيّة يصعب على المشاهد العادي ملاحظتها . و لهذا يقول بيير بورديو أنه لتجنب الانخداع بهذا التلاعب في المصطلحات علينا إعادة صياغة المصطلحات بنحو يشرح الصورة دون مبالغة حتى تصلنا المعلومة نقيّة دون مبالغة أو تزييف .

يرى بورديو أيضا أن التلفزيون يكاد أن يشكل اليوم نوعاً من "مرآة نرجسية" يستعرض فيها محبو ذواتهم أنفسهم فيها ، و عليه ، فهو مكان لحب الذات حسب التوصيف البورديوي. فكل من يرغب في الظهور عليه الاستعداد من أجل تقديم عدد من التنازلات بدءا من فقدان حرية التعبير ، لان التلفزيون اليوم يفرض عددا من القيود بحيث يفقد المشارك استقلاليته و بالتالي موضوعيته وذلكمنخلالفرضموضوعالنقاش،وكذافرضمسلكياتالحوارو الاتصال.من جانبٍ آخر، فلا ظهور مجاني على الشاشة، مما يفرض أيضا تحديد الحيز الزمني الواجب احترامه عند حديث المشاركين بحدود وقيود صارمة.

أما عن مسألة الرقابة ، فيرى بورديو أن هناك نوعين من الرقابة: رقابة خفية من الداخل و هي تلك التي تفرض القيود السالف ذكرها على المشاركين من صحفيين و مقدمو برامج و ضيوف من المثقفين و المحللين السياسيين و الاقتصاديين و غيرهم و رقابة خارجية وهي ما يسميها بورديو بالرقابة الاقتصادية،و التي تمنع

على من يظهر على القناة التلفزيونية قول أي شيء غير ذلك الذي تم تحديده من قبل مالكي هذه الأخيرة أو الوزارة الوصية (وزارة الإعلام والاتصال)و التي تقدم الدعم.

***الواقع الفكري و الواقع الاعلامي حسب بورديو:***

تعمل ظاهرة العولمة على جعل كل المحليات متماثلة في محدداتها كما في سماتها و المحلي في أبسط معانيه يدل على "جمع من الناس يعيشون في حيز ما يجعلهم في اتصال مستمر و لهم خبرات متصلة و عدد من المؤسسات و النظم تعمل على تنشيط الحياة بالمجتمع و تماسكه و وحدته" 6 ، و وفق ذلك يلوح المحلي محصلة تفاعل تراكمي مخصوص بين أبعاده الايكولوجية و الثقافية و الاجتماعية و هو لذلكلا ينقطع عن التغير المتواصل تبعا للتغير الذي قد يطرأ على أحد هذه الأبعاد أو جميعها 7. و في هذا،كانلبييربورديوموقفاخاصامنهذهالمسألة، اذ قام بنقد القنوات التلفزيونية المحلية (الفرنسية) بشدة لأنها لا تلتزم بتأدية مهامها الاعلامية ، فهو يرى أن مهمة الاعلام الأساسية تقتصر على نقل الواقع المعيش بعرض ما يحدث من تغيرات داخل المجتمع علىالمستوىالمحلىوالعالميعلى حد سواء.و قد وضحأنالعلاقةبينالواقعالفكريوالواقعالإعلاميعلاقةتناقضلأنالأوليحتاجإلىقدركبيرمنالتأنيوالملاحظةوالثانييحتاجإل ىالسرعةوأقلدقةمنالأول.ان هذاالتناقضلايعنيعدم وجود صلةبينهما، لأن سبب التنافس بين القنوات التلفزيونية اليوم أساسه السرعةفينقلالمعلومةو هذا ما يجعل من التلفاز فضاءيتطلب السرعة لا التفكيرالمتأني.لهذا الغرض تم خلقمبدأ "المفكرالسريع"الذيتتم استضافته من طرف مقدميالبرامجللتعليقعلىالموضوعالمطروحللنقاشلكن ليس قبل تعبئته بالأحكامالمسبقةحولهذاالموضوعو الواجب زرعها في ذهنالجمهورالذي يتلقاهابشكلمباشرويعتبرهاوجبةثقافية.

يذهب بورديو الى أبعد من ذلك حين يصف ضيوفندواتالمناظرةالزائفةالذينوصفهمبشركاءفياللعبةالسياسية، و يجزم بأنكلمايدوربينهممنجدالمتفقعليةقبل تسجيل أو عرض البرنامج. فيجزم أن كلا من الضيفين يحملسيناريومعينيعبرعنوجهةنظرمعاديةللأخروقديكونواأصدقاءحميمينعلىأرضالواقعوبرزلكبالنظراتوالإشاراتوالل غةالمستخدمةخلالالنقاشبينهموالذييديرهمقدمالبرنامجالغيرمحايدفيغالبالأحيانويدعموجهةنظرفريقعلىحساباآخرليخ لفيتوازنالنقاشويحققهدفالقناةفيالتعبيرعنرؤيتهاو التلاعب بأفكار الجمهور من المشاهدين.

في نهاية عمله ، يتساءل بورديو عن ماهية الطرف الذي يتحكم في الصورة الإعلامية : هل هم أصحاب النفوذ السياسي أم المثقفين , أم مالكي رؤوس الأموال و النظرة التجارية للتلفزيون ؟

تكمن الاجابة على هذا السؤال في جوهر أبحاثه المطولة حول التلفزيون ، فيقول أن البرامج التلفزيونية ، أيا كانت طبيعتها ، تحمل العديد من المضامين السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية ، و ان المضمون المقدم في التلفزيون يؤثر في الجمهور بشكل كبير لأن هنالك متخصصين بصياغة الأحداث و تقديمها عبر الشاشة بشكل يثير و يستحوذ انتباه المشاهد و يزرع فيه عواطف تسيطر على تفكيره وبهذا

يكوّن وجهة نظر لا تعبر على حقيقة الواقع المعيش بل بطريقة تتناسب مع الجهة المهيمنة و أن هذه الجهة هي السلطة السياسية ، فهي المستفيد الوحيد من تلاعب التلفزيون بعقول المشاهدين لتضمن سيطرتها على الرأي العام و على المجتمع ككل .

***خاتمة:***

ان النجاح غير المتوقع لهذا الكتيب يعود الى التحليل السوسيولوجي الرفيع الذي قدمه بورديو حول الاعلام عموما و التلفزيون بشكل خاص و هو ثمرة أبحاثه المطولة في المجال ، اذكرس بيير بورديو في كتابه «التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول» جهوده في نقد فساد أجهزة الإعلام الفرنسية وتبعية المثقفين الفرنسيين،كما وضح في أكثر من محطة أن المعني أولاً وأخيراً بالتوعية والإرشاد هو الجمهور . من جهة أخرى، يميط هذا الكتاب اللثام عن جوهر الميديا الحديثة، وما تنتجه من برامج وصور بعيدة عن أي موضوعية، فهي بذلك تعكس رؤية للعالم غير محايدة سياسياً نتيجة سياسة الليبرالية الجديدة أو ما يطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم «الخلل أو الفوضى والانحراف عن النظام الطبيعي».

يرى المؤلف أيضا أنتأثيرالتلفزيونيهيمنعلىكلأنواعالإنتاجالثقافيوالمعرفي،فقدصار– على حد قوله– آلةغسيلدماغجماعيللشعوبوعصاسحريةللسلطاتوالدولوالامبرياليةوالاقتصاديةوالسياسيةفيتدوينالتاريخوتشويهالوقائعوالهتكبحضاراتأممبأكملها. و في وصفه للتلفزيون يقول أنه لايقبلالتعبيرعنالفكر،لأنهناكعلاقةسلبيةبينالعجالةالطارئة التي تقترن به والفكر بشكل عام ، ولايمكنالتفكيرتحتضغطالطوارئوضيقالوقتالبرامجي.

و أخيرا و حول هيمنة التلفزيون يفسر المؤلف طبيعة العلاقة ما بين رأس المال و بقية المجالات الأخرى، حيث أصبحت معظم المجالات خاضعة أكثر فأكثر للمنطق التجاري الذي فرض اليوم ضروریاته بشكل متزايد على الساحة سعيا وراء نسبة الإقبال (الأودميات) و بهذا أضحى الاقتصاد يلقي بثقله على التلفزيون، ومن خلال وزن التلفزيون على الصحافة، و بالتالي يمارس ذات التأثير على بقية الصحف الأخرى حتى تلك الأكثر نقاء، وكذلك على الصحافيين الذين يتخلون عن مهامهم الأساسية و الجوهرية ليستسلمون شيئاً.. فشيئاً لموضوعات وقضايا التلفزيون.

**الهوامش:**

1- بييربورديو، *التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان للنشر، سورية، 1999*

2- Eric Macé, As seen on TV, Les immaginaires médiatiques : une sociologie postcritique des médias, Editions Amsterdam,Paris, 2006, p 19.

3-Sapir, Edward, Anthropologie, Traduit par Chr.Baudelot et P. Clinquart, paris, Editions de minuit, 1971, p 52.

4-لبيب، حازم، التنمية الاجتماعية و اتجاهاتها بالبلدان العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد 22، 2000، ص 253.

5-Lecerf, Jean, Espoirs au tiers monde, in Panorama mondial, Editions Académiques de Paris, 1992, p 141.

6-رشوان، حسين أحمد، المجتمع: دراسة في علم الاجتماع، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الثالثة، 2002، ص.ص 111-112

7-Mendras, Henry et Forsé, Michel, Le changement social : Tendances et paradigmes , Paris, Armond Colin, 1983, pp.39-40.